

ميتافيزيقا الموت

السيد محمد الخامنئي

الكلمات المفتاحية: محمد الخامنئي، النفس، ميتافيزيقا الموت، المعاد، البعث، الله، القوة والفعل، الملائة صدرا.

1. الحدوث الجسماني للنفس

اشتهرت بين الفلاسفة نظريتان رئيسيتان حول النفس الإنسانية: إحداهما النظرية الأفلاطونية التي تعتبر وجود النفس قديماً وروحانياً ومتقدماً على خلق الجسم (تيماسوس).

وهناك نظرية المشائين التي قررها ابن سينا على أفضل نحو، وتفيد الحدوث غير الجسماني للنفس بموازاة الحدوث والخلقة الجسمانية للبدن. وقد أبدع الملائة صدرا نظريةً جديدةً في هذا المضمار، فأثبت أنه بالرغم من أنّ نفس الإنسان تتجه في النهاية وبفضل مسيرتها التكاملية نحو الحالة اللامادية، إلا أنها جسمانية الطابع في بواكير الخلقة وتنبثق من الجسم والبدن.

يعتقد الملائة صدرا أنّ نفس الإنسان تقع بادئ ذي بدء في مرتبة جمادية، وبعد ذلك عند الخروج من المرحلة الجمادية تنتقل إلى الحالة الجنينية وتتموضع في المرحلة النباتية (النفس النباتية) ثم تدخل في المرحلة الحيوانية (النفس الحيوانية) لتصل في طور بلوغها الحقيقي مرحلة النفس الإنسانية فتغدو «نفساً ناطقةً». وتلو هذه المرحلة أيضاً تستطيع النفس عبر سعيها وتدريباتها وتربيتها الروحية والعقلية أن ترتقي إلى مستويات البلوغ الإنساني الرفيع (وتسمى عندئذ النفس القدسية أو العقل بالفعل) وهي مرحلة قلما يتاح لأحد بلوغها.

كل هذه المراحل هي في الواقع مسيرة وخروج من القوة إلى الفعل. كل مرحلة آتية تمثل بالنسبة للمرحلة التي تسبقها أمراً بالقوة تبلغه النفس عبر اجتيازها الدرجات الاشتدادية وانتقالها من الضعف إلى القوة والاعتدار، بيد أنّ مجموعة هذه النقاط والمحطات تمثل خطأ واحداً نطلق عليه اسم «الحياة الإنسانية» و«خط التكامل» الذي يتقدم إلى الأمام بحسب قاعدة الوجود المشكك والحركة الجوهرية.

من المهم أن نعرف أن الولوج إلى أيّ مرحلة من هذه المراحل لا يعني إطلاقاً الابتعاد عن المرحلة السابقة، إنّما

تتسع المرحلة الأرقى وتشمل المراحل الأضعف التي سبقتها، فالقاعدة هي أنّ كل وجود قوي يشمل على أساس تشكيك الوجود، كافة المراتب الوجودية الأضعف التي سبقتها.

يلوم الملاً صدرا فلاسفةً كالمشائين اعتبروا النفس جوهرًا متوقّفًا له حالة واحدة من مطلع الحياة إلى خاتمتها ولا تمر بأية حركة جوهرية، وهو بطبيعة الحال يختلف أيضًا مع فلاسفة نظير ديكارت فصلوا فصلًا مطلقًا بين النفس والبدن.

يعتقد الملاً صدرا كباقي الفلاسفة المسلمين بتجرد النفس (لا ماديتها) ولكن لا بالنحو الذي أثارتها المدارس والتيارات التي سبقتها. تجرد النفس برأيه عملية تدريجية ناجمة عن مسيرتها الصعودية التكاملية، أو عن «حركتها الجوهرية» بحسب مصطلحاته الخاصة. الحركة الجوهرية في الجسم تفضي إلى شيخوخته وفنائه، بيد أنّها في النفس حركة نحو العقلانية تعزز النفس وتضاعف من نشاطها يومًا بعد يوم. النفس المتكاملة تنفصل عن البدن وتستغني عنه، وتتحوّل بعد ذلك إلى «العقل المجرد» وتواصل حياتها في مناخ أفضل من المناخ المادي.

علم النفس الفلسفي عند الملاً صدرا يقوم على أصوله الفلسفية الأخرى التي تُعد أدلّة وبراهين تثبت نظريته هذه على النحو التالي:

1. للجوهر المادي حركته التكاملية بشكل طبيعي، والطبيعة خلافًا لرأي المشائين ليست متوقفة، إنّما لها ديناميتها المتمثلة بالحركة الجوهرية.

2. الهدف الغائي لخلقة أيّ موجود يبيّن في ذلك الموجود مواهب ينبغي أن تظهر وتتفتح بحركته الجوهرية. مع أنّ البدن والنفس موجودان كلاهما في المادة الجسمية لذلك الموجود، غير أنّ تفاوت الأهداف الغائية والأغراض النهائية بينهما يبيّن في كل منهما مواهب مختلفة عن مواهب الآخر، وهذه حالة طبيعية، فنحن نرى أنّ النبات والحيوان كلاهما ينشأ من المادة، لكن أحدهما يكتسب نفسًا حيوانية والثاني تبقى نفسه نباتية.

3. نفس الإنسان ليست سوى «أناه» و«ذاته» وبالرغم من الاختلاف التدريجي الذي ينبثق بين النفس والبدن، إلا أنّ «ذات» الإنسان أو «أناه» لا تقبل التجزئة، فالتركيب الجامع بين النفس والبدن إنّ هو إلا اتحاد، وليس إضافةً وتركيبًا خارجيًا.

4. مع أنّ البدن يتكوّن من المادة وأجزاء عديدة، إلا أنّ النفس والأنا الإنسانية بسيطة غير قابلة للتجزئة

والتقسيم، وبناءً على قاعدة فلسفية أخرى تقول «بسيط الحقيقة كل الأشياء» تعزى كافة الآثار الداخلية والخارجية للإنسان وأفعاله وانفعالاته إلى ذات الإنسان ونفسه، فهي تنبع من وحدته «النفس في وحدتها كل القوى».

5. بالرغم من أن النفس مجردة ومستقلة، بيد أنها تحتاج عملياً إلى الحواس الخمس والدماغ والأعصاب لتكوين إدراكاتها، كما تحتاج إلى الأعضاء البدنية لممارسة الأنشطة الجسمية المختلفة. كل هذه هي أدوات النفس ورسائل انفعالاتها وأفعالها. يعتبر الملاً صدرا النفس مديرةً وحارسةً للبدن وليس العكس، ويقول إن الرياح تتحرك بالسفينة وليس السفينة بالرياح.

6. كلما تكاملت النفس بحركتها الجوهرية قلّت حاجتها إلى البدن، والموت الطبيعي (دون الموت بالحوادث المفاجئة) نتيجة طبيعية لانفصال النفس الاختياري عن البدن، وتجردها الفعلي. وهذه النظرية الصدرائية في الموت تناقض طبعاً نظريات الطب القديم (جالينوس وبقرات) والطب الحديث أيضاً.

قدم الفلاسفة المسلمون براهين معينة لإثبات تجرد النفس، منها:

مضافاً إلى إدراك الجزئيات والإحساس بها، يستطيع الإنسان إدراك الأمور والمفاهيم الكلية والانتزاعية وتحليلها وصياغة أحكام لها. تتصف جميع الأمور الانتزاعية والكليّة بأنها غير مادية (لأن خصائص المادة والمادية مسلوّبة منها مسبقاً) وكل شيء غير مادي أعلى رتبةً من المادة، ولا يمكنه أن يحتاج إلى المادة، ولا بد له من ظرف ومجال مستقل وغير مادي يحمله وإلا كان مادياً.

المجال المستقل الذي تتموضع فيه الكليات (إدراكات الإنسان الكلية والانتزاعية) يسميه الفلاسفة «الذهن» ويجب التنبيه إلى أنه شيء آخر غير الأدوات الجسمانية وطبقات الدماغ (Cortex).

التنكر لتجرد النفس أو الذهن، ضرب من التبسيط البحثي والكسل الفلسفي، فالتدقيق والتبصر بالأدلة المنطقية قد يؤوّل بنا إلى تجرد النفس والذهن، رغم أن البعض ليست لهم طاقة بمثل هذا التدقيق على ما يبدو.

أقام الفلاسفة براهين أخرى ذكرت في كتب الملاً صدرا وسواه.

تجارب نظير الحاسة السادسة، والتخاطر، وإدراكات ما بعد الموت بالنسبة للعائدين إلى الحياة، والرؤيا الصادقة

وما إلى ذلك من الظواهر (المتاسايكو) المدهشة وغير العادية التي لا تفسير لها بحسب البنية الجسمية المادية، يمكن أن تمثل إشارات ودلائل على تجرد النفس الإنسانية.

2. المعاد والبعث

بالإمكان اعتبار المعاد من المسائل الفلسفية والميتافيزيقية المعنوية. وكانت تُعد قبل الملاً صدرا من مسائل علم الكلام، رغم أن المعاد أحد فروع مسألة النفس وفنائها أو خلودها بعد الموت، وينضوي ضمن موضوعات الفلسفة ومسائلها. أبعد معالجات هذه المسألة عن الفلسفة هي إنكار المعاد والعالم أو العوالم الأخرى، وهذا ما أشارت إليه الأديان والحكماء الإشراقيون.

نجح الملاً صدرا في إثارة هذه المسألة بصياغة فلسفية وجعلها تبعاً للمباحث المتعلقة بالنفس الإنسانية وقواها وإدراكاتها. طبقاً للمعتقدات الإسلامية والقرآنية، ثمة لعالم المادة نهاية يتغير فيها شكل المادة أو تضحل بصفة نهائية. ولكن في إطار حادثة استعادية (يمكن تسميتها الانفجار الكبير أو البينغ بونغ الثاني) تعود الأشياء والإنسان للظهور بصورة خاصة.

سجل الملاً صدرا في نظرية جديدة له أن «الحشر» أو البعث الجماعي للبشر في اليوم الآخر لا يختص بالإنسان بل يتسع ليشمل كافة الموجودات. تفسير المعاد بهذه النظرية أكثر انسجاماً مع نظريات تبدل الماهية الفيزيائية للعالم في نهاية العالم.

«القيامة» أو يوم اضطراب نظام الطبيعة وشكلها، يستتبع مشهد «الحشر» أي نشور وحضور جميع البشر والأشياء. يرى الملاً صدرا أن الزمان يتسبب في تفريق الناس، وحينما يرتفع الزمان والمكان وهما عاملاً تشتت البشر فستجتمع كل الموجودات في مكان واحد. عالم الآخرة في فلسفة الملاً صدرا عالم آخر لا يختلف عن عالمنا هذا إلا في المادة والكتلة والجسم والزمان (الخاصة بالمادة) أما أشكال الأشياء وصورها الظاهرية فلن تختلف. وقد أُطلق على هذا العالم اسم العالم المثالي وهو أشبه ما يكون بخصائص الطاقة المحضة.

«العالم المثالي» أحد العوالم الثلاثة التي يعتقد بها الملاً صدرا في إطار رؤيته الكونية. على غرار الصوفية. والعوالم الثلاثة هي: عالم المادة، وعالم المثال (أو الخيال)، وعالم العقل أو المعقولات.

ليست هذه العوالم مناطق منفصلة عن بعضها، إنما تصنّف على أساس ما تمتاز به من قوة وضعف وكما ونقص، وتعبير الملاً صدرا: بحسب قربها أو بعدها عن مصدر «الوجود المحض» أي الله.

العالم العقلي في هذه النظرية أكمل من العوالم الأخرى، ويتسم بإحاطة تامة بالعوالم الأدنى منه مرتبةً. وليست هذه الإحاطة بمعنى الإحاطة الهندسية، إنما هي ذات مفهوم فلسفي، أي إنه (العالم العقلي) يتوافر على كافة الجوانب والأبعاد الإيجابية التي تشتمل عليها العوالم الأدنى. العالم المادي ناقص تتقيّد موجوداته بالزمان والمكان والجسمانية والكثير من القيود الطبيعية والفيزيائية.

العالم الأرقى هو عالم المثال الذي لا يحده زمان أو مكان أو جسمانية (شأنه شأن ملكة (قوة) الخيال عند الإنسان) فالموجودات هناك لها حياة أكمل ودرجة وجودية أرفع. وعالم العقل أرفع وأكمل وأقل تقيّدًا حتى من عالم المثال.

يعتقد الملاً صدرا أنّ الإنسان بعد الموت أو فناء العالم مع أنّه يفقد جسمه الظاهري إلا أنه يكتسب جسمًا آخر يشبه جسمه السابق ويشتمل على كل خصائص بدنه الدنيوي. كما أنه يستصحب في هذا القالب الجديد معطياته العلمية والمعلوماتية المخزنة في ملكة خياله (وسبق أن أشرنا إلى أن الملاً صدرا يرى ملكة الخيال غير مادية)، وبالتالي تظهر «أنا» الإنسان بعد الموت بكل صفاتها وملكاها وتمنياتها الدنيوية على شكل بدن له نفس، وسيرى جميع الناس بعضهم بعضًا في ذلك العالم على نفس صورهم (بدون المادة) وخصالهم الدنيوية، وسيعرفون بعضهم معرفةً دقيقةً.

كوكبة من المتكلمين الذين قالوا بالمعاد الجسماني حسبوا أن النفس يجب أن تعود يوم المعاد إلى سابق حالها المادية بمسيرة تراجعية قهقرائية. اعتبر الملاً صدرا هذه الفكرة ساذجة وساق استدلالات معينة لإثبات أن النفس سيكون لها بدنٌ من دون أية عودة قهقرائية إلى الوضع المادي السابق. إنه بدن يعتقد فيلسوفنا أنه أشبه بثياب تُرتدى تحت الثياب الظاهرية، فهو بدن يتموضع في باطن هذا البدن الظاهري ويكون بمثابة قالب للنفس الإنسانية، وحيث إن هذا البدن المخلوق من مواد كيميائية وعضوية ظاهرية (والذي تتبدل خلاياه يوميًا) غير ثابت، لذا فهو لا يقبل أن يكون متعلقًا للنفس المجردة.

يرى الملاً صدرا أن معالجته لإثبات جسمانية المعاد متطابقة مع القرآن، على أن لفيقًا من الفلاسفة اللاحقين

واجهوا هذه الأطروحة بمزيد من الشك والإنكار، وذهبوا إلى حاجة هذه النظرية الشجاعة المبتكرة إلى التكميل والتنضيج، وربما ساعد تقدّم العلوم في المستقبل على استكمال الفكر البشري فيما يتصل بقضية الحياة والخلود بعد الموت.

عارض الملاً صدرا فكرة التناسخ بشدة ورفضها بأدلة فلسفية، وبرر الآراء المنسوبة لبعض الحكماء السابقين لسقراط. يقول مثلاً إن البدن الحقيقي للإنسان والذي يقترن بالنفس الإنسانية بعد الموت، يتأثر بأفكار الإنسان وأفعاله ويغيّر من شكله. الأشخاص الذين تتحول لديهم الخصال الحيوانية إلى «ملكات» ينقلون إلى حيوانات ويتجسدون يوم الحشر والآخرة على تلك الأشكال الحيوانية. يوضح الملاً صدرا أن مراد الحكماء السابقين وبعض المذاهب القائلة بالتناسخ هو التحوّل في شكل الباطن الداخلي للإنسان.

3. ميتافيزيقا الموت

الموت من المسائل المطروحة فلسفيًا في مباحث النفس، وقد نقله الملاً صدرا من حيز العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وناقشه بدقة.

يرى هذا الفيلسوف أن الموت إعراضٌ للنفس عن البدن وترك له من قبلها. ولا يوافق آراء علماء الأحياء والأطباء الذين تصوروا سبب الموت فساد البدن وتآكله واضطراب نظامه الطبيعي، وشبهوا ذلك بشخص يُهدم دائرةً فيضطر إلى مغادرته. يقول في هذا الباب:

الموت على نحوين: الموت الطبيعي والموت بحادث تصادفي (الموت الاخترامي). في الموت الطبيعي تترك النفس البدن في غمرة مسيرتها التكاملية حينما لا تجد حاجةً إليه، وهو ما نسميه الموت الطبيعي. ويمثّل البدن بالسفينة والنفس بالرياح التي تحرك السفينة، مضيئًا: كما أن السفينة تتوقف حينما لا تكون ثمة رياح، كذلك حينما تنفصل النفس عن البدن ترتفع الحياة وتعدم.

يشير الملاً صدرا إلى حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله جاء فيه أن الجسم كله سيأكله التراب ما عدا «عجب الذنب» الذي خلّق منه الإنسان، ويعلق قائلاً: يأخذ الإنسان بعد موته ملكة خياله وهي «عجب ذنب» الإنسان والمشملة على كافة الصور والمعطيات الدنيوية للإنسان، والمتصفة باللامادية وعدم التبعية للعالم المادي،

وَتُعَاد تشكيل شخصية هذا الإنسان الدنيوي في الآخرة بقدرات وقوى أكبر.

الموت لا يُفني الجسم إنما يبضّعه ويشتته، ويسلبه صفاته مع الحفاظ على أصله ونواته، ويمكنه أن يعيد تلك الصفات إلى النواة الأصلية للبدن متى ما شاء.

الموت في الأدبيات العرفانية الإسلامية والإيرانية . خصوصاً في المثنوي لجلال الدين الرومي . ولادة جديدة وبوابة لولوج عالم آخر، والأفضل أن نسميه الحياة بدل أن نسميه الموت. يطلق الرومي على مراحل تحول الجنين البشري من مادة بلا روح إلى حالة نباتية ثم حيوانية فإنسانية اسم الموت أو الولادة الجديدة، ويؤكد أن الإنسان المتكامل يمكنه أن يصير ملائكاً بالموت، بل قد تعلق مرتبته حتى على الملائكة.